

٢ - الأعلام :

أحمد فتحي زغلول باشا

[في مارس الماضي على وفاة أحمد فتحي زغلول باشا : ٣ عاماً]

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

—

ولد أحمد فتحي زغلول في قرية أيبانة بمديرية النربية في ربيع الأول سنة ١٢٨٩ هجرية ، وكان أصغر أنجال الشيخ إبراهيم زغلول أحد الأعيان البارزين في تلك القرية ، ولكنه حرم حنان الوالد وعطفه ؛ إذ مات والده وتركه صغيراً لم تفتح عيناه للحياة بعد ، وكان شقيقه سعد زغلول فطياً ، وكانت والدتهما — وهي إحدى عوائل عائلة بركات — لا تزال شابة لا تتجاوز العشرين ، ففتحت شبابها لولديها اليتيمين ، ووقفت نفسها على تربيتهما تحت رعاية أخيهما الكبير لأبيهما الشناوي زغلول الذي عني بتعليمهما على ما كان مهوداً في تعليم أولاد الأعيان يومذاك ، وكان أن نفع الله بالطفلين اليتيمين على خير ما يكون النفع للأمة والوطن ، فصار سعد إلى ما صار إليه في زعامة الأمة وقيادتها ، وانتهى فتحي إلى ما انتهى إليه ، دعامة من دعائم الإصلاح التشريعي والاجتماعي ، ومنازة تهدي ركب الأمة إلى سواء السبيل .

ولم يكن اسمه أحمد فتحي ، وإنما كان اسمه فتح الله صبري ، وهكذا سماه والده ، وهكذا عرف في حياته الأولى ، حتى انتهى من مراحل التعليم في كتاب القرية ، وفي مدرسة رشيد الابتدائية ، ثم المدرسة التجهيزية ، ودخل مدرسة الألسن وصادف أن زار أحمد خيرى باشا ناظر المعارف يومذاك تلك المدرسة ، فأعجب بذكاء الشاب فتح الله صبري ، وأدهشه ما لمس فيه من نبوغ خارق ، فخلع عليه اسمه أحمد ، ونحت من « فتح الله » اسم فتحي ، وهكذا سماه أحمد فتحي ، وأصدر أمره إلى المدرسة بقبوله بالجهان ، ورد ما دفع من المصاريف إليه ، وكانت هذه أول شهادة بالنبوغ لفتحي زغلول .

وتخرج فتحي متفوقاً في دراسته فأرسلته نظارة المعارف سنة ١٨٨٤ إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، وقد رجع في سنة ١٨٨٧ بعد أن حصل على شهادة الليسانس في القانون ؛ فعين بقلم قضايا

الحكومة ، ثم رقي رئيساً لنياية أسيوط ، ثم رئيساً لنياية الإسكندرية ، ثم مفتشاً ببلجنة المراقبة ، ثم رئيساً لمحكمة الزقازيق فرئيساً لمحكمة مصر ، ثم اختير ركيلاً لنظارة الحفانية ، وقد ظل في هذا المنصب حتى انتقل إلى جوار ربه ...

تلك كانت حياة فتحي زغلول في مناصب الحكومة ، وهي حياة يمكن للورخ أن يجمّلها في سطور ، وما كانت حياة الوظيفة في يوم مجال عبقرية ولا مظهر نبوغ ، وإنما كان مجال عبقرية فتحي ومجال نبوغه في ناحية الإصلاح التي رادها ، والتي رأى في انتهائها خدمة للوطن ونفعاً للأمة وإفادة لشباب طامح يتوئب للنهوض ، وينشد الحياة المهدبة الكريمة . فما هو ذلك المجال الذي اختاره فتحي للعمل ، وآثره بجهوده ونبوغه ؟

يقول فتحي باشا في كلمة من كلماته : « إن من يخبر حال هذه الأمة ويقف على كنهه خالفها ، ويعرف جيداً حقيقة خصالها ويدرك الصحيح من آمالها ، ويتم النظر في أعمالها ، يفنتع بأن التربة زكية لا يفسد زرعها إلا شيء من البذور الرديئة ، وبأن الخلق الكريم ينشأ ستار من عدم العلم التام بالواقع ، وبأن الآمال كبيرة شريفة لكنها مشوبة بشكوك وأوهام تطوح بنا يوماً ذات اليمين ويوماً ذات الشمال . أما أعمالنا فثمرة هذا وذاك ، نهتاج والسكون واجب ، ونلهو وكل النجج في العمل ، وما كان شيء من كل هذا ليكون لولا خطأ في تقدير حقيقة حالنا ، وعدم التفات إلى حركة البيئة التي نحن فيها ، ونسيان لشيء كثير من الماضي ولهو عن الحاضر وعدم اهتمام بما هو آت . ومعال أن تدوم هذه الحال ، فلا بد لنا من إعداد العدة اللازمة لهذا التحول ، وما هي إلا العلم ؛ فإن العلم سلم الأمم إلى الحضارة ، وكاشف ظلمات الجهل ، وسدد الآراء ، ومنجج كل مجهود ، وهو الذي ينقي الضمائر ، ويجمع شمل المتفرقين ، ويطهر السرائر ، ويوحد كلمة المتنافرين ، وينير البصائر فيهدينا إلى أن التآزر شرط النجاح ، وأن يد الله مع الجماعة ، وأن التباغض مجلبة الشر وأن التناؤد سبيل إلى الدلة » ...

هذا هو ما رآه فتحي في تشخيص داء الأمة ، وتقدير الدواء لها ، وعلى هذا اندفع بنشد العلم الصحيح لشفاء الأمة من دائها . العلم الذي « ينقي الضمائر ، ويطهر السرائر ، وينير البصائر » ، العلم الذي « يقوم الأخلاق ويصهر الأمة بما لها من الحقوق ،

باشا ، ويقولون إنه أخرجه على نسق كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » الذي ترجمه ، ولكنه لم يضع اسمه عليه إشاراً للسلامة نظراً لما تضمنه الكتاب من نقد شديد لاذع ...

وكان لفتحى باشا فى التعريب طريقة آثرها وارتضاها . كان يقرأ الكتاب ويأتى عليه جملة ، ويتشرب روح المؤلف ويتمص شخصيته ، ثم يأخذ بمد ذلك فى التعريب . قال أحمد لطفى السيد باشا : « ولفتحى باشا فى تعريبه شخصية تامة ممتازة فى طريقته وفى أسلوبه البيبانى . أما نحوه فى التعريب فليس هو الالتزام الحرفى للأصل ، ولا المحافظة للأصل ، ولكن نحوه بين ذلك وسط مرض . وأما أسلوبه فهو عربى خالص لا يعنى فيه بفضلة الزخرف والمحسنات اللفظية ، ولكنه مع ذلك متين الرصف ظاهر الرشاقة جذاب جداً » .

أما شخصية فتحى باشا فكانت شخصية العالم ، فالهدوء والزانة ، والإخلاص للعمل ، وأداء الواجب قبل كل شئ ، والابتعاد عن مجال الضجيج والصخب . كل هذه كانت صفاته الظاهرة ، حتى أنه لم يكن يرى فى ميدان الحياة العامة إلا قاصداً لميادة مريض ، أو مواساة رقيق ، أو متوجهاً لرد زيارة ، أو مشاهداً لحفلة أنس لا بأس أن يجد فيها شيئاً من الرفاهية ، وماعداً ذلك فشكل وقته بين الدفاتر والقمار ، والتحرير والتجوير ، كأنه كان يتمجل إنجاز مهمته قبل أن تعجله النية . قال صديقه أحمد لطفى السيد باشا فيما رواه عنه :

« ما أنس لأنس إذ دخلت إلى فتحى باشا فى داره بهليوبوليس فى يوم حر ذى لوافح محرقات . دخلت إليه وقت المهاجرة فوجدته على مكتبه ، وأمامه أوراقه منثورة ، وكعبه مفتوحة ، يقرأ ، ويراجع ، ويمرّب ويكتب ، كذلك دأبه لا ينقطع عند خلو من عمله الرسمى إلى عمل واحد بينه ، كأن عاداته فى العدل بين الناس جعلته يمدل فى تقسيم فراغه بين المقاصد العلمية المختلفة . أو كأنه يجد فى الانتقال من عمل إلى عمل راحة وتثقيطاً . فقلت له : أأنتك فى رباضتك فى الأجازة وراحتك فى حمارة الفيظا ؟ فقال وهو يبتسم : نعم هذه رباضتى . تغلفته فيما يظنه رياضة ، ويتخيله سمادة ، وخرجت أحمد الله على أن مذا من ينفق صحته وملكانه ووقته فى سبيل العلم » .

هكذا عاش أحمد فتحى زغلول باشا للعلم ، وفى سبيله أنفق

وما عليها من الواجبات » ، وبين غمق القرن الماضى ، وغلس القرن الحاضر كانت تهز حياة الأمة دعوات الإصلاح المتتالية ، فكان الأستاذ الإمام محمد عبده يدعو دعوة الإصلاح فى الناحية الدينية ، وكان مصطفى كامل يحمل لواء الوطنية ، وكان قاسم أمين يدعو إلى النهوض بالمرأة المصرية ، وكانت هذه الدعوات يكتنفها ما يكتنفها من الضجيج والتدافع . أما فتحى زغلول فقد وقف فى ميدانه ينادى : « علموا الأمة . علموا الأمة » ، وانتجى من ذلك ناحية هادئة ، فمكف على التأليف والترجمة ، ونقل الآثار النافعة ، حتى يقيم من ذلك دعامة للأمة تهض عليها إلى ما تنشده من الحرية والكرامة وقوة الشخصية .

وكان فتحى زغلول رجل ارتقاء لا رجل ثورة كما يقول أحمد لطفى السيد باشا ، وكان يرى أن الوصول فى الإصلاح إلى نتيجة مضمونة يقتضى إدراك الحقوق والواجبات ؛ حقوق الفرد وواجباته ، وحقوق الأمة وواجباتها ، ولهذا ابتداء سنة ١٨٨٨ على أثر عودته من فرنسا يترجم كتاب « العقد الاجتماعى » لروسو ، ولكنه بمد أن قطع فيه شوطاً بعيداً تجاوزه ، وأقبل على ترجمة كتاب « أصول الشرائع » لبنتام فأتمه وأصدره بمد فترة وجيزة ، ثم مضى فى الترجمة والتعريب ، فمرب كتاب « خواطر وسوانح فى الإسلام » للسكوت هازرى دى كاسترى ، و « مر تقدم الإنكليز السكسونيين » لأدمون ديملان ، و « روح الاجتماع » و « مر تطور الأمم » و « جوامع الكلم » و « حضارة العرب » لجوستاف لوبون ، و « خطاب مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز » و « كتاب يوجار فى الاقتصاد السياسى » ، و « جمهورية أفلاطون » و « الفرد ضد الملكة » اسپنسر . ومن هذه الكتب ما تم تعريبه وطبعه ، ومنها ما تم تعريبه ولم يطبع ، ومنها ما تركه رهن الإنجاز والإنعام ولا ندرى ما صنعت به الأيام .

أما فى مجال التأليف فقد ترك « كتاب الهامة » و « شرح القانون الدنى » و « رسالة فى التزوير » ؛ كما ألف كتاباً « فى التربية العامة » فأتمه ولكنه لم يطبع فيما علمت . وهناك كتاب وهو كتاب « حاضر المصريين وممر تأخرهم » الذى ظهر سنة ١٩٠٢ من تأليف « محمد عمر » ، وكتب مقدمته فتحى باشا ، فإن بعض الدافعين يمزون تأليف هذا الكتاب إلى فتحى زغلول